

العوامل الدافعة إلى الإلحاد الحديث

في العالم العربي

عباس يونس



الترقيم الدولي : 8-601-38-9948-978

العوامل الدافعة إلى الإلحاد الحديث في العالم العربي

www.tabahfoundation.org

جميع الحقوق محفوظة © ، يمنع إنتاج أو توزيع أي جزء من هذا الإصدار بأي وسيلة دون موافقة خطية صريحة من مؤسسة طابة ، إلا في حالات الاقتباس المختصر مع العزو الدقيق ، والكامل في المقالات النقدية ، أو المراجعات .

العوامل الدافعة إلى الإلحاد الحديث في العالم العربي

عباس يونس

ترجمة محمد سامر الست

ورقة تحليل ٠٠١ | ٢٠١٥ / ١٤٣٦

© ٢٠١٥ مؤسسة طابة

جميع الحقوق محفوظة

لا تتخذ مؤسسة طابة مواقف مؤسسية تتعلق بالسياسة العامة والقضايا الجيوسياسية؛ والآراء المطروحة في هذه الورقة تخص كاتبها، ولا تعكس بالضرورة وجهات نظر المؤسسة.

مؤسسة طابة

ص.ب. ١٠٧٤٤٢

أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة

www.tabahfoundation.org

نبذة عن مؤسسة طابة :

هي مؤسسة غير ربحية تُعنى بتقديم أبحاث ومبادرات واستشارات وتطوير كفاءات، وتسهم في تجديد الخطاب الإسلامي المعاصر للاستيعاب الإنساني، وتسعى إلى تقديم مقترحات وتوصيات لقادة الرأي لاتخاذ نهج حكيم نافع للمجتمع بالإضافة إلى إعداد مشاريع تطبيقية تخدم المثل العليا لدين الإسلام وتبرز صورته الحضارية المشرقة مستندين في ذلك على مرجعية أصيلة واستيعاب للتنوع الثقافي والحضاري والإنساني.

نبذة عن مبادرة سؤال :

”سؤال“ مبادرة مجتمعية ترحب بالأسئلة الوجودية الشائعة بين الشباب والالتزام بحوار هادئ يحترم عقل الإنسان، ويملاً قلبه، ويناسب وجدانه وتعمل على خلق مساحة للاستفادة المتبادلة بين فريق المبادرة والشباب، من خلال عدة فعاليات وأنشطة متنوعة لمناقشة الأسئلة التي تشغل الأذهان، وتعتبرها شرائح مختلفة من المجتمع أسئلة محرمة أو ممنوعة، مبادرة “سؤال“ لا سقف لديها للأسئلة مهما كانت جرأتها أو حساسيتها، وقدوتنا في ذلك سيدنا عبد الله بن عباس حينما قال إنه أوتي العلم بسبب لسان سؤول -أي كثير الأسئلة- وقلب عقول.

نبذة عن الباحث :

عباس يونس

مقدمة

تتحوّل أعداد متزايدة من الشباب العربي المسلم إلى اعتناق معتقدات إلهادية، أو في طريقها نحو الإلحاد، إذ تُظهر نظرةً فاحصةً لمواقع وصفحات فيسبوك وحسابات تويتر تابعة للملحدين عرب بأنّ لهم وجودًا في جميع الدول العربية تقريبًا، وهم ينظّمون أنفسهم بطرق استراتيجية. ومن المتوقّع لهذا التيار أن يشهد تصاعدًا أمام استشرَاء عوامله المسببة له. وإنّ القصد من هذه الورقة تحليل دوافع الإلحاد في العالم العربي في وقتنا الحاضر.

المحتويات

مقدمة	٥
السياق	٨
تحديد التيار: أخبار عن الإلحاد في العالم العربي	١١
دوافع الإلحاد الحديث	١٧
الإنترنت والجيل الرقمي	١٨
تسمم الخطاب الديني والممارسة الدينية	٢٢
التدين المتصلّب	٢٢
الدين السياسي	٢٥
التطرّف	٢٨
ركود الخطاب الإسلامي الأصيل	٣٠
التجديد المنهجي: مواضيع ومواد	٣٠
معرفة الوضع الراهن	٣٣
انحسار دعوة الناس إلى الله تعالى	٣٤
غياب الدعاة والعلماء	٣٥
الإلحاد الجديد	٣٦
الثورات العربية ٢٠١٠-٢٠١١	٣٧
خاتمة	٤٠

السياق

إنّ تحديد العوامل المساهمة في انتشار الإلحاد في العالم العربي الحديث يكشف عن مهمّة صعبة للغاية، إذ إنّ أيّ انحراف عن نظرة الدين للعالم، سواء في المجال الاجتماعي أو السياسي أو الثقافي أو الديني قد يُعدّ خطوة نحو الإلحاد. وإذا ما أقحمنا هذا باعتباره أحد خطوط البحث فلسوف يثقل ورقتنا هذه بنقاش لا ينتهي حول تباعد المنطقة العربية عن «فضائها الثقافي الكوني» بتعبير مالك بن نبي⁽¹⁾. وقد ألّفت في هذا الشأن مؤلفات كثيرة ضافية تغنينا عن الحاجة إلى البحث والتنقيب فيه. وإنّ مجال هذه الورقة هو تحليل النمط المعاصر تحديداً للإلحاد الزاحف إلى مجتمعاتنا العربية. فإنّ صعوده ظاهرةً حديثة جداً تستحق تحليلاً مركزاً.

ولكي نجنب بحثنا أن تجتذبه الإشكالية المشار إليها آنفاً، من الضروري أن يكون النهج في تحديد عوامل الإلحاد دقيقاً للغاية في التفريق بين عاملين مهمّين: تغيّرات المرحلة الزمنية المصيرية والتيارات ذات التأثير الفوري.

تشير تغيّرات المرحلة الزمنية المصيرية إلى التحوّلات الكبرى التي حدثت في العالم العربي منذ القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي حيث أدّت إلى تغيير طبيعة المجتمع في المنطقة. وقد كانت هناك على وجه التحديد أربعة تحولات

(1) استخدم مالك بن نبي مصطلح «الفضاء الثقافي الكوني» للدلالة على الأفكار والمبادئ التي تساهم مجتمعةً في تحديد نموذج حضاري أصلي.

ذات اعتبار مهمّ في هذا الخصوص: إصلاحات التنظيمات العثمانية وتقنين الشريعة الإسلامية وتحرير البنيتين الاقتصادية والاجتماعية والتوجّه نحو الدولة القومية. وليس من شأن مجال هذا البحث استقصاء هذه التحوّلات بالتفصيل؛ على أنّه من الجدير بالملاحظة أنّ هذه التحوّلات قد تركت مع الزمن تأثيرات متراكمة أدّت إلى تغيّر جذري في البنية الاجتماعية والفضاء الثقافي الكوني للعالم العربي. وهذا التغيّر أثار بدوره كثيرًا من العوامل، بفسحه مجالاً رحباً لنشوء نزعات اجتماعية وثقافية وسياسية جديدة، ساهمت في انحسار تدريجي لهوية المجتمع التاريخية منذ ذلك الحين. واتسمت هذه الفترة أيضًا بنهاية النتاج الإسلامي الحضاري، إذ توقف المسلمون عن المساهمة في أية قيم مهمّة في السياسة والثقافة والمجتمع. وإنّ الانصراف عن الدين الذي شهدته هذه الفترة كان بدافع المتعة والملذات تلقاء الثقافة الغربية العلمانية أكثر من كونه اعتناقًا للتراث الفكري الغربي.

وقبل هذه الفترة كان يعتمد تكوين المجتمع العربي على نموذج قد تأصل فيه باعثٌ ديني حقيقي. وكانت البنية الدستورية في كثير من البلدان الإسلامية تؤلّفها العلاقة الثلاثية بين الحاكم (السلطان) والعلماء والرعية. وكان الحاكم يستمدّ شرعيته من العلماء مقابل تعهده بإقامة حكم الشريعة إذ كانوا يضبطون الميزان الدقيق للسلطة في هذه العلاقة الثلاثية. ولئن كان لدى الحاكم سلطة على القضاء فلم يكن بوسعها أن يفرض رغبته على الحكم الشرعي، فإنّ العلماء من أهل الفتوى نظّموا أحكام القضاء لضمان بقائهم جزءًا أساسيًا من المنظومة الشرعية كما وثّقها

وحفظتها المجموعة الضخمة من كتب الفقه وأحكام الشريعة في التراث الفقهي الإسلامي. وإنّ أي انحراف عن هذا المعيار الراسخ سيكون من السهل التعرف عليه وتحديدده وسيعرّض صاحبه لإنكار العلماء^(١). وأكثر من ذلك أنّ العلماء يمنحون البوصلة الأخلاقية في المجتمع لأنّ الضمير العام كان يعتبرهم المحافظين على الشريعة وصائنها ويعتبر دورهم الحفاظ على سلوك الحاكم منضبطاً. إلا أنّه قد شهد آخر عهد الخلافة العثمانية اختلالاً في هذا الشأن مما مهّد الأساس لما نراه اليوم في المجتمع العربي من إسقاط دور العلماء التقليدي.

أمّا التيارات ذات التأثير الفوري الكبير فتشير إلى الاتجاهات الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية في المشهد العام لما بعد عام ١٩٨٠ وتأثيرها الخاص على ما يطلق عليه علماء الاجتماع الجيل «الألّفي»^(٢). وقد شهدت العقود الثلاثة المنصرمة معدلات تغيير غير مسبوقة في هذه المجالات. وتبدي الأجيال الجديدة صفات ومواقف تأخذهم بعيداً عن الأجيال السالفة بطرق لم تكن معروفة من قبل. وكلّما مرّ عقد من الزمان تتوسّع الفجوة أكثر وتعرّض أجيال جديدة لتجربة الظواهر المألوفة بصورة مختلفة.

فلئن شهد جيلٌ ما بعد الاستعمار طرقاً خاصّة جدّاً للإلحاد فإنّ البيئة الألّفية قد ولّدت مجموعة من الدوافع هيأت التربة لظهور موجة ثانية من الإلحاد. وإنّ

(١) ميريام هويكستر وآخرون، *The Public Sphere in Muslim Societies* (المجال العام في المجتمعات المسلمة)، (ألّبي: مطبعة جامعة نيويورك الحكومية، 2002).

(٢). المقصود بالجيل الألّفي هو كلّ مولود من عام 1980 فصاعداً.

القصد الذي نرمي إليه في هذه الورقة هو سبر هذه الدوافع وما أدّته من دور سببي في تعزيز مناخ صار مؤاتياً للإلحاد الحديث في العالم العربي.

ومن الجدير بالملاحظة أنّ الاتجاهات الفورية حدثت داخل مهد التغيرات التي تخلفها عوامل المرحلة الزمنية المصرية ثمّ توجّه تأثير هذه التغيرات على السياسة والمجتمع والثقافة والتعليم والدين في المنطقة. ولولا التأثير المتراكم لهذه العوامل المصرية خلال القرن الماضي لما كان للاتجاهات والتيارات الفورية تلك الجاذبية لدى كثير من الناس.

تحديد التيار: أخبار عن الإلحاد في العالم العربي

هناك دليل سردي، إلا أنّه مطّرد، يوحي بارتفاع متزايد في معدّل الإلحاد في العالم العربي، ولكن لا توجد إحصائيات شاملة، والدراسات في هذا المجال نادرة جدّاً. ونعرض هنا أخبار مختلفة عن الإلحاد في المنطقة لتقديم الدليل على وجود هذا التيار.

وجد استطلاع أجراه معهد غالوب الدولي حول الإلحاد والتدين في العالم أنّ السعودية، وفقاً للدول العربية التي قامت بمسحها، فيها أكبر عدد من الملحدين في العالم العربي؛ فمن بين ٥٠٢ شخص تناولهم الاستطلاع عرّف ٥٪ أنفسهم بأنهم «ملحدون عن قناعة»، بينما بلغت النسبة ٤٪ من بين ٦٢٦ في فلسطين، و٢٪ من بين ٥٠٠ في لبنان، ومن بين ١٠٠٠ شخص في العراق و٥٠٣ في تونس كانت النسبة أقل

من ١٪^(١).

ويقدر عبد العزيز محمد الباز، وهو ملحد مصري كان قد سُجن في الكويت وحاليًا هو ناشط بارز على الإنترنت، عدد الملحدين الناشطين على الإنترنت في المنطقة بـ ٣٠,٠٠٠^(٢).

وذكر تقرير نشرته نيويورك تايمز عام ٢٠٠٨ أنّ شبابًا عراقيين صاروا نافرين من الزعماء الدينيين والدين الذي يدعون إليه^(٣)، وهو من أحدث التقارير المؤثقة للاستياء المتصاعد من الدين في المنطقة.

وفي شهر حزيران/ يونيو ٢٠١٢ أصدر ١٠٥ من علماء السعودية ودعاتها بيانًا بخصوص الهجمة الإلحادية المتصاعدة واصفًا ظهور الإلحاد فيها بأنه «أمر منظم عبر مواقع وشخصيات مدعومة من الداخل والخارج». ولم ير العلماء هذا التيار الإلحادي أنّه نشأ من حالة بحث عن إجابات لتساؤلات بل عدّوه استهزاء صريحًا بالمقدس. ومن التوصيات المدرجة في البيان: «إحالة العابثين من الزنادقة إلى القضاء الشرعي وتنفيذ

(١) معهد غالوب الدولي، Global Index of Religiosity and Atheism (المؤشر العالمي للتدين والإلحاد)، 6 آب/ أغسطس 2012.

(٢) TheHumanist.com Staff، An Atheist in Kuwait: Interview with Ben Baz (٢) Aziz and ExZombie – Part Two (ملحد في الكويت: مقابلة مع عبد العزيز الباز وإكس-زومبي، الجزء 2)، 28/4/2014، <http://thehumanist.com/features/inter-views/an-atheist-in-kuwait-interview-with-ben-baz-aziz>.

(٣) سابرينا تافرناي، Young Iraqis are Losing Their Faith in Religion (شباب عراقيون يفرون من إيمانهم بالدين)، نيويورك تايمز، 3/3/2008، www.nytimes.com/2008/03/03/world/africa/03iht-youth.4.10662930.html?_r=2.

أحكام الشريعة فيهم»؛ ومطالبة أجهزة الدولة بمنع كل ما يسبب الإلحاد؛ وتوجيه وزارة الإعلام لبث البرامج النافعة التي تغرس الإيمان وتردّ على شبه الإلحاد^(١).

وأصدر المجمع الفقهي الإسلامي لدى رابطة العالم الإسلامي في ديسمبر ٢٠١٢ بياناً حول تنامي بؤادر الإلحاد والتشكيك في الدين. وقد حثّ البيان على أنّه «يجب على كلّ من ضلّ السبيل وانحرف فكره فسلك طريق الشهوات والشبهات انقياداً للهوى والشيطان أن يتوب إلى الله توبة نصوحاً». ودعا البيان الحكومات الإسلامية إلى «القيام بمسؤولياتها بالتصدّي لبؤادر الإلحاد والوقوف أمام ذرائعه ووسائل استنباته في هذه الأمة»^(٢).

وفي آب/ أغسطس ٢٠١٤، طلبت هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في السعودية من وزارة الداخلية التدخل العاجل لإيقاف حسابات إلحادية والقبض على من يقف وراءها وعلى عدد من الملحدين. فكان ذلك أوّل دعوة علنية إلى اعتقال ملحدين على الرغم من أنّه قد سبقها قانون يجرم الإلحاد بوصفه جريمة إرهابية يعاقب عليها. وقد تناول الإعلام الدولي هذه القصة تناولاً واسعاً وأصدرت منظمة مراقبة حقوق الإنسان بياناً حول خطر مثل هذا القانون^(٣). وقد واصلت الحكومة

(١) علماء السعودية ينتفضون ضد موجة الإلحاد المتصاعدة، مفكرة الإسلام، 10/6/2012، <http://is-lammemo.cc/akhbar/arab/2012/06/10/151332.html#2>.

(٢) بيان حول تنامي بؤادر الإلحاد في بعض المجتمعات الإسلامية، المجمع الفقهي الإسلامي، رابطة العالم الإسلامي، ديسمبر 2012، 40، <http://ar.themwl.org/node/40>.

(٣) مراقبة حقوق الإنسان، السعودية: «قوانين الإرهاب الجديدة تتعدى على الحقوق»، 20/3/2014، www.hrw.org/ar/news/2014/03/20.

السعودية التصدي للإلحاد عبر الإنترنت إذ تحركت أربع جهات حكومية لذلك فحجبت أكثر من ٨٥٠ موقعًا إلكترونيًا إلحاديًا^(١). وزعمت مصادر في الحكومة أنها حددت أكثر من ٤٥٠٠ حساب على مواقع التواصل الاجتماعي تعمل على نشر الإلحاد بين شباب المملكة^(٢).

وثمة أمثلة أخرى على اهتمام الحكومات بالإلحاد. من ذلك ما جاء على لسان مدير أمن الإسكندرية اللواء أمين عز الدين في مداخلة هاتفية مع برنامج «خط أحمر»، إذ أعلن أنه قد صدر قرار بتشكيل فريق عمل جديد لتتبع ملحدين واعتقالهم على «جرائمهم».

وحضر في شهر أكتوبر ٢٠١٤ عدد من الملحدون العرب مؤتمرًا بارزًا في لندن أُطلق عليه «المؤتمر العلماني» من أجل الكلام على الدين والمجتمع المدني وحقوق الإنسان ومناقشتها؛ وقد تبنى الحضور «بيان العلمانية» الذي دعوا فيه إلى «فصل كامل للدين عن الدولة»، وإلى «حرية الدين والإلحاد وانتقاد الأديان» إذ «الاعتقاد شأن خاص»، وإلى وضع حدٍّ «للتمييز ضد الشواذ جنسيًا والمفكرين الأحرار والمرتدين عن الإسلام»^(٣). وكان هذا المؤتمر أول مؤتمر مخصص لهذا الغرض يحضره

(١) علي بن غرسان، «إغلاق ٨٥٠ موقعًا إلحاديًا في ١٦ شهرًا»، ٢٠١٤ / ٨ / ١٩، www.okaz.com.sa/new/mobile/20140819/Con20140819718404.htm.

(٢) «الحياة: ٢٥ ألف حساب على تويتر تروج الدعاية والشذوذ»، البيان، ٢٠١٤ / ٦ / ١، www.albayan.ae/five-senses/east-and-west/2014-06-01-1.2135941.

(٣) النص الكامل لبيان العلمانية باللغة الإنكليزية: www.secularconference.com/manifesto-for-secularism.

ملحدون عرب ويتحدثون فيه مباشرة عن ظروفهم وأوضاعهم في العالم العربي مما يوحي بقوة بأن قضية الإلحاد في العالم العربي تستحوذ بلا تردد على اهتمام الناشطين الغربيين المناهضين للدين والمناصرين لحقوق الإنسان.

وقد صار الإلحاد بيتاً بشدة خلال حالة الفوضى التي عمّت الشؤون العامة مباشرة عقب الثورات التي اندلعت في ٢٠١٠ و٢٠١١. فقد شعر الملحدون العرب بالجرأة والتمكين لإبراز وجودهم العلني خاصة عبر وسائل التواصل الاجتماعي إذ تكاثرت مجموعات وحسابات على صفحات الفيسبوك وتويتر، بما في ذلك مجموعات خاصة ببلد معين فضلاً عن مجموعات منتظمة تكوّنت حول الفكرة العامة المتعلقة بالإلحاد. يمكن الاطلاع على مسح موجز لهذه المجموعات في الملحق.

على أن وسائل الإعلام المحلية والدولية قد تناولت صعود التيار الإلحادي في المنطقة، بيد أنه لا تزال معظم التقارير تركز على توصيف الملحدين، وحيثما أمكن، تذكر ردود هيئات الدولة وبياناتها ذات الصلة بالموضوع. وقد ظهرت تقارير ومقالات صحفية في منابر إعلامية شتى، منها: الإيكونومست (مجلة، أمريكا)، أبِن ديمُكرسي (موقع إلكتروني، بريطانيا)، فورن بولسي (مجلة، أمريكا)، الصحيفة الرسمية السعودية (السعودية)، مدى مصر (مصر)، المونيتور (الشرق الأوسط وشمال أفريقيا)، هيسبرس (صحيفة إلكترونية، المغرب)، المصري اليوم (مصر)، إيجبت إنديبندنت (مصر)، النهار والقدس (العالم العربي، لندن)، ديلي نيوز (مصر)، العربية (إقليمية)، يور ميدل إيست (إلكترونية)، الأخبار واليوم السابع

(مصر)، هوفنغتن بوست (أمريكا)، بي بي سي نيوز (بريطانيا)، فرنسا ٢٤، صالون (إلكترونية، أمريكا)، نيويورك تايمز.

وتوحي لهجة التقارير الإعلامية ومضمونها بأنّ الإلحاد في العالم أصبح قضية ذات اهتمام متزايد لدى منافذ إخبارية دولية، لا سيما حين توضع ضمن إطار قضايا حقوق الإنسان.

وإنّ دعاة الإسلام المعتبرين متفقون على أنّ الإلحاد في ازدياد إذ إنّ بعضهم قد لفت النظر إليه. وشهد العالم العربي خلال شهر رمضان عام ٢٠١٤ حلقات برنامج «لحظة سكون» للداعية الحبيب علي الجفري، وهو أول برنامج مخصص كلّه لموضوع الإلحاد في العالم العربي، بثته قناة سي بي سي المصرية. وإنّ تحليل ردّة فعل الملحدين والمؤمنين على البرنامج من شأنه أن يعضد النظرة التي ترى أنّ الإلحاد في العالم العربي بات قضية قلق متنامٍ يأخذ شكل تداعياتٍ سياسيةٍ قويةٍ. وقد تولّى الداعية المصري معز مسعود في برنامجه الإعلامي «رحلة يقين» عام ٢٠١٢ تناول مواضيع تتعلق بالإلحاد والفكر الحديث. هذا بالإضافة إلى عدد من القنوات التلفازية العربية والإسلامية التي ناجزت قضايا الإلحاد ببرامج وحلقات مخصصة لهذا الغرض بدرجات متفاوتة من العمق الفكري وفهم الموضوع.

دوافع الإلحاد الحديث

سيكون التركيز، وفقاً للغرض من هذه الورقة بتقديم سياق الأحداث الفورية، على ما قد حدّدناه من أهم الدوافع التي أدّت إلى المساهمة في النموذج المعيّن من الإلحاد المتنامي حالياً بين الشباب العربي. وهي عوامل، مصنّفة جميعها على نطاق واسع بأنّها عوامل نظامية^(١)، قد أُمّطت اللثام عن الفراغ الذي خلّفته تحولات المرحلة الزمنية وعن البيئة التي نشأت في أعقاب هذه التحوّلات، والتي صار عمرها الآن عقود من الزمن، وتضمّ هذه البيئة الثقافة والاقتصاد والأنظمة السياسية، وقد أدّت مثلها مثل عوامل المرحلة الزمنية دور «مساهم تراكمي» في التسبب بهذا النوع من الإلحاد اليوم.

وهذه العوامل النظامية لم تعمل وحدها منعزلة عن سياقها، فهي كطبيعة الأنظمة المعقّدة تعمل أمام خلفية فكرية، أو نظرة عالمية، منها انبثقت وبزغت. لذا سنُحجّم هنا عن الدخول في نقاش حول الرّؤى العالمية والنماذج المعرفية التي مكّنت من انتشار الإلحاد الحديث بين الشباب العربي كيلا يأخذ ذلك تركيزنا باتجاه سبيل نظري من البحث، مع أهميته. على أنّه ينبغي أن يوعزَ بكتابة أوراق بحثية أخرى تتناول إدراك مفاهيم كالعولمة، والتحررية (الليبرالية) العلمانية، والليبرالية الجديدة، والرأسمالية، وما بعد الحداثة، ومذهب العلمية، وتكيفها المتناسب مع المنطقة، مع مراعاة المؤلّفات الوفيرة التي أُلّفَت في هذا الخصوص.

(١) من حيث صلتها بالنظام الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي أو الثقافي.

الإنترنت والجيل الرقمي

يعدّ الإنترنت التقنية الحاسمة في عصرنا، ففي عام ٢٠١٤ استخدَم أكثر من ٢,٨ مليار إنسان الشبكة العنكبوتية العالمية، مقابل ٣٦١ مليون إنسان عام ٢٠٠٠، بمعدل زيادة سنوية ١٥٪/مدة ١٤ عامًا^(١)؛ وبحلول عام ٢٠١٥ من المقدَّر أن يتصل بالإنترنت حوالي ٢٠٠ مليار جهاز ذي إمكانيات غير مسبقة في استخراج شتى المعلومات عن العالم الحقيقي ونقلها^(٢). ووفقاً لإحدى الدراسات فإنَّ ٩٥٪ من جميع المعلومات الموجودة على كوكب الأرض محوَّلة إلى بيانات رقمية ويمكن الوصول إليها عبر الإنترنت^(٣). وقد تأخر العالم العربي في احتضان الثورة الرقمية ولكنه بعد ذلك أثبت أنه مستهلك مفرط. إذ يوجد في المنطقة حالياً ١٢٥ مليون مستخدم للإنترنت، و٥٣ مليون مستخدم لوسائل التواصل الاجتماعي، منهم ٣٦٪ يقضون ٣-٤ ساعات يومياً على الإنترنت، و٥٤٪ يستخدمون الفيسبوك عدة مرات في اليوم^(٤). وإنَّ أغلب المستخدمين للإنترنت في المنطقة أعمارهم

(١) لمزيد من الإحصائيات حول استخدام الإنترنت: www.internetworldstats.com/stats.htm.

(٢) فرانسيسكو غونزاليس وآخرون، "Change: 19 Key Essays on How Internet is Changing Our Lives" (التغيير: 19 مقالة أساسية عن الكيفية التي غيَّرت بها الإنترنت حياتنا) BBVA OpenMind، www.bbvaopenmind.com/wp-content/uploads/2014/04/BBVA-OpenMind-book-Change-19-key-essays-on-how-internet-is-changing-our-lives-Technology-Internet-Innovation.pdf.

(٣) المصدر السابق.

(٤) فادي سالم وسارة الشاعر، "The Arab World Online: Trends in Internet Usage in the Arab Region" (العالم العربي على الشبكة: اتجاهات في استخدام الإنترنت في المنطقة العربية)، كلية دبي للإدارة الحكومية، www.dimed.gov.fr/sites/dimed.gov.fr/files/asmr_the_arab_world_online_trends_in_internet_usage_in_the_arab_region_-_avril_2013.pdf.

دون الثلاثين^(١). وفي كل يوم تنتج المنطقة ١٠٠ مليون بحث على غوغل و ١٠٠ مليون مشاهدة فيديو على يوتيوب، وفي كل دقيقة يجري رفع ساعة فيديو على يوتيوب^(٢). وبتعبير خبير وسائل التواصل الاجتماعي إريك كوالمان: «وسائل التواصل الاجتماعي ليست موضة إنما تحوّل جذري في طريقة تواصلنا»^(٣).

وفي غضون سنوات، تمدّد المجال العام العربي تمدّدًا واسعًا إلى فضاء افتراضي مفتوح غير منضبط ومحرّر من القيود التنظيمية. فما كان غير متصوّر في السابق، كقراءة العرب، من المغرب إلى الخليج، النسخة العربية من كتاب ريتشارد دوكنز «وهم الإله»، صار الآن أمرًا اعتياديًا. وغدا ناشطون ملحدون عرب كبسام البغدادي يستغلّون الفرص التي يتيحها الإنترنت وصار لهم دور فعّال في إبراز الإلحاد بوصفه خيارًا للشباب العربي. فقد رُوّجت ترجمته لكتاب «وهم الإله» عبر الإنترنت ورفعت للتحميل المجاني. وقام بعض أشد المناصرين للإلحاد الجديد برفع مقاطع فيديو على يوتيوب مترجمة وتحت عناوين مستفزة باللغة العربية. وقد شوهدت آلاف المرات، بل عشرات الآلاف أحيانًا، عبر الحواسيب المحمولة واللوحية والهواتف الذكية في المقاهي والسيارات والحدائق والمدارس والجامعات

(١) إيلي عون، "Arabia Digitized" (الدول العربية تحوّلت إلى عالم رقمي)،

Ipsos MENA، www.slideshare.net/IpsosMENA/digital-media-forum-dubai-2014?related=1.

(٢) المصدر السابق.

(٣) إريك كوالمان، "Socialnomics: How Social Media Transforms the Way We Live and Do Business" (اقتصاد التواصل الاجتماعي: كيف حوّلت وسائل التواصل الاجتماعي طريقة حياتنا وأعمالنا)، (نيوجرسي: جون ويلي وأولاده، 2009).

وفي البيوت. وقد تراكم نشاط القلة حتى صار حركة إلكترونية متنامية مما جعل الإلحاد قضية وجودية، وإنّ ردود هيئات الدولة (المشار إليها في القسم الأول) على الإلحاد الإلكتروني لا تعدو أن تؤكد وجوده.

يحتضن الفيسبوك، منبر التواصل الاجتماعي الأكثر شيوعاً في المنطقة، كمّاً هائلاً من المجموعات الإلحادية الخاصة والعامة، إذ تتراوح المستويات المختلفة لنشاطها من مجموعات لها عشرات المتابعين إلى أخرى يتابعها الآلاف؛ ومن بينها بالتحديد مجموعتان تشيران إلى التيار الإلحادي في المنطقة.

“Think I”^(١) مجلة إلحادية عربية تزعم أنّها الأولى من نوعها في العالم العربي؛ عدد المشتركين فيها غير متاح ولكنها سجّلت زيادة بنسبة ٥٠٠٪ في عدد المعجبين بين شهر أيار/ مايو ٢٠١٢ (٢,٥٤٨) وشهر آب/ أغسطس ٢٠١٤ (١٢,٨٦١)؛ ولديها سمة «مشاهير الملحدين» التي تقدّم نبذاً عن السيرة الذاتية لشخصيات عامة معروفة من الملحدين أغلبهم من الغربيين؛ وتحمل أيضاً سمات أخرى عن معتقدات الملحدين، وهي عادةً تتبنى ذات الحجج والمواد التي تُسمع من حركة الملحدين الجدد.

المجموعة الثانية هي “Broadcasting Atheist Arab” (إذاعة

الملحدين العرب)^(٢) وهي ذات أهمية خاصة من حيث إنّها توحد الملحدين العرب

(١) مجلة ‘I Think’، 2011، www.facebook.com/I.Think.Magazine [صفحة مناصرين].

(٢) Arab Atheist Broadcasting (إذاعة الملحدين العرب)، 2011، www.facebook.com/ArabAtheistBroadcasting [صفحة مناصرين].

حول منبر إعلامي لمناقشة قضاياهم وسماع الخطاب الإلحادي. هذه المجموعة على صفحة الفيسبوك كان لديها ٤٧٤ معجباً في أيار/ مايو ٢٠١٢، زاد عددهم إلى ٤٠٨١ معجباً في آب/ أغسطس ٢٠١٤؛ وعلى يوتيوب، حيث تُرَفَع مقاطع فيديو لاجتماعات على الإنترنت بين مختلف المشاركين، يوجد حالياً ٢,٩١٩ مشترك (مقارنة بـ ١٢٥٣ في أيار/ مايو ٢٠١٣، بنسبة زيادة قدرها ٢٣٣٪) ومشاهدات فيديو تزيد عن ١٥٨,٠٠٠ (مقارنة بـ ٦٩,٨٧٣ مشاهدة في أيار/ مايو ٢٠١٣، بنسبة زيادة قدرها ٢٢٦٪).

وهاتان المجموعتان مهمتان لما تجسّدان من جرأة وصلة وثيقة بالملحدين في المنطقة. وهما تمثلان التحوّل الذي طرأ على الملحدين العرب الشباب من مجتمع صامت لا يعبر عن نفسه إلى مجتمع يستبق تنظيم نفسه حول فهم جديد للحياة.

ثم إنّ الإمكانات المتنامية للإنترنت في العالم العربي باتت مذهلة، فمن المتوقع أن يصل عدد مستخدميه إلى ٤١٣ مليون بحلول عام ٢٠١٥، وأن يأتي ٣١٪ من المرور على الإنترنت من الهواتف الذكية بحلول عام ٢٠١٧^(١). ولا ريب أنّه سيزداد نمو النشاط الإلحادي على الإنترنت خلال هذه المدة.

(1) “Go-Gulf, “Internet Usage in The Middle East – Statistics and Trends (استخدام الإنترنت في الشرق الأوسط – إحصائيات واتجاهات) [مخطط معلومات بيانية]، 2/8/2013، www.go-gulf.ae/blog/internet-usage-middle-east

تسمّم الخطاب الديني والممارسة الدينية

التدين المتصلّب

كي نفهم المشهد العام في المدة الأخيرة، الممتدة من ٥ إلى ١٠ سنوات، من الضروري عرض نظرة عميقة حول الكيفية التي تكوّنت بها أوضاع هذه الفترة.

فلقد صعدت السلفية المتزمتة بقوة في الثمانينيات في أعقاب أزمة الحرم المكي في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٧٩، حيث قام متمردون، أججهم شعورهم بأن الانحدار الأخلاقي قد اقتحم المجتمع السعودي، بالسيطرة على الحرم وحصاره. وقد كان كبار قادتهم تلاميذ عند أهم مشايخ المملكة الشيخ عبد العزيز بن باز. وبعد هذه المحنة وسّع النظام الملكي السعودي مجال تأثير علماء الدين؛ فاعتُمدت مجموعة قوانين اجتماعية أكثر صرامة وتحفظاً، ثم بدأ تدين ملحوظ في الفضاء العام يظهر بوضوح. وكانت السلطات متحمسة لمعالجة، وقهر، التظلمات التي كانت لدى المتمردين إذ كان كثير من عموم الناس متعاطفين معها أيضاً، وذلك من أجل مواجهة «التهديد» الناهض للمذهب الشيعي الإيراني الثوري.

وقد أمنت المؤسسة السلفية دعماً مالياً غزيراً لنشر الفكر والمعتقدات والمواد السلفية حول العالم. وقامت السفارات السعودية بدور يشبه البؤر الاستيطانية وساعدت في عملية النشر. وعلى الجبهة المحلية صارت هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (المطاوعة) ذات نفوذ كبير ومُنحت الصلاحية لتقوم علناً بإدارة السلوك

الأخلاقي وتوزيع منشورات التوجيهات الدينية بحرية في كل مكان، من المراكز التجارية إلى المساجد. وتقلّد رسميًا العاهل السعودي لقب «خادم الحرمين» بدل لقب «جلالة». وتطوّر التدين إلى أن صار سياسة دولة. وانتشر الإسلام السلفي ليغدو صورة الإسلام في الشارع العربي، وصبغت حملاته الدعوية الشديدة المزاج الديني المفترض عند كثير من المسلمين العاديين في المنطقة.

ولدى استقصاء محتوى صفحات الملحنين العربية على الإنترنت يتضح أنّ الملحنين العرب متمرّدون عمومًا ضد التأطيرات السلفية للدين وليس ضد الإسلام الموروث نفسه. فالفتاوى غير المعقولة أو الحالات التي تكون مثالا للترتّم المتطرّف أو الخطابات المتحرّجة المثيرة للشقاق والخلاف هي تقريبًا منبثقة حصريًا من مصادر سلفية أو لها صلة بالسلفية. ودور وسائل التواصل الاجتماعي ما فتئ يكشف هذه التجاوزات الجاحجة ويوسّع دائرة العلم بوجودها.

وهناك أمثلة كثيرة على ذلك، منها: في عام ٢٠٠٢ توفيت ١٥ طالبة مدرسة في السعودية بعد أن منعتهنّ هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مغادرة المدرسة إذ شبت نار في بنائها لأنهن لم يكنّ محتجبات كما يجب؛ وفي عام ٢٠٠٧ اعتُقِل عناصر من هيئة الأمر بالمعروف بتهمة المسؤولية عن موت أحمد البلوي بعد احتجازه للاشتباه باختلائه غير الشرعي بامرأة أجنبية^(١)؛ وعلى نحو مماثل، تورّط

(١) «السعودية: توقيف عناصر من الأمر بالمعروف للتحقيق بوفاة موقوف»، العربية نت، 3/7/2007.

عنصر من الهيئة بمطاردة شاب بالسيارة أدت في النهاية إلى مقتله وإصابة أخيه إصابة بالغة في رأسه، وقد انتشر خبر حادث السيارة المفجع على الإنترنت بكثافة؛ وفي عام ٢٠١٢ صورت امرأة أعضاء من الهيئة وقد أحاطوا بها في مركز تجاري وهم يطلبون منها مغادرته لأنها تضع مساحيق تجميل وطلاء أظافر، والمرأة ترفض المغادرة بتحدٍّ، وقد حظي خبر هذه المواجهة ومقطع الفيديو المصور عنها بتداول سريع على قنوات التواصل الاجتماعي.

وما انفك الخطاب الجامد الغريب غير المعقول يشكّل عاملاً مساهماً أساسياً في خلق بيئة مؤاتية للرافضين، وثمة أمثلة شائعة على ذلك، منها: فتوى معيبة أصدرها الشيخ المغراوي من المغرب حيث أفتى بجواز تزويج الفتيات بعمر ٩ سنين لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم تزوج السيدة عائشة وهي بنت تسع سنين^(١)؛ وقبول منع المرأة السعودية من قيادة السيارة بالسخرية والاستهزاء حين قال شيخ سعودي علناً إنّ القيادة قد تضر بمبايض المرأة وبحوضها وتؤدي إلى إصابة أطفالهن بخلل طبي^(٢)؛ وأفتى شيخ سلفي أنّه متى ما كانت الطفلة مشتهة فيجب على الوالدين تغطية وجهها وفرض الحجاب عليها^(٣).

(١) حسن الأشرف، «أعلى هيئة علمية بالمغرب تندد بفتوى أجازت نكاح الصغيرات»، العربية نت، 22/9/2008، www.alarabiya.net/articles/2008/09/22/57048.html.

(٢) «رجل دين سعودي: المرأة التي تقود السيارة تخاطر بإنجاب أطفال مشوهين» بي بي سي عربي، 29/9/2013، www.bbc.co.uk/arabic/middleeast/2013/09/130929_saudi_cleric_women_driving.shtml.

(٣) «شيخ سعودي: يجب تغطية وجه الطفلة المشتهة»، الوطن، 3/2/2013، www.wattan.tv/ar/news/26979.html.

وعلى الرغم من أنّ هذه الأمثلة معزولة نسبياً وأنّ الضلوع المباشر لكلّ منها على حدة في التسبب بالإلحاد ليس ذا بال، إلا أنّها قد ساهمت مجتمعةً في تكوين استعارات عن الدين استغلها الملحدون وزايدوا عليها لتدعيم تأكيدهم أنّ الدين زائف. وفي عصر غير مسبوق في التواصل وتبديد الحواجز لن يكون بوسع فضاء عام يزرع تحت رقابة نسخة من الدين متزمتة وأحادية النظرة أن يساند حيوية الدين الحقيقي واستقراره ويؤمّن لهما الحماية.

الدين السياسي

لقد فعل إخفاق إيديولوجية «الإسلاميين» في الوفاء بالوعد الذي أخذته على نفسها بنهضة إسلامية فعله في علمنة الدين في الألفية الجديدة أكثر مما فعلته جهود العلمانيين أنفسهم.

فالتجربة المضطربة للإخوان المسلمين مع القيادة السياسية رسخت الفكرة التي تقول إنّ الأفضل للدين أن يُجَعَلَ مستقلاً عن الحياة العامة. ويوجد سببان رئيسان لهذا. فقد حظيت تجربة الإخوان السياسية من بدايتها بتأييد خطاب ديني موازٍ أضفى شرعية على جدول أعمالهم المتدين، وكانت شخصيات دينية متعاطفة معهم تستخدم آيات قرآنية وأحاديث نبوية وتستغل خطب الجمعة لإضفاء قدسية على طموح الإخوان المسلمين السياسي ولخلق انقسامات كاذبة لنضال «الإسلام في مواجهة الكفر». وقد صوّرت حركة الإخوان المسلمين نفسها أنّها صاحبة الحكم في

الدين في الفضاء السياسي، فكان فشلها عند كثيرين فشل ضمنى للإسلام في الحياة العامة. ولولا الأُمّية الدينية المؤسفة عند كثير من الأجيال الفتية التي تلقت تعليمًا علمانيًا، لكان تأثير هذا الإخفاق أقلَّ حدةً على إيمان الناس.

ويتعلّق السبب الثاني بالأداء والسلوك، فقد كانت فترة حكم الإخوان المسلمين مترعة بالتآمر والأكاذيب والعنف والخطاب المستفز المشحون دينيًا مما أساء لمرجعيتهم الأخلاقية ونفّر الناس بدل أن يوحدهم؛ فحطّم هذا السلوك الأسطورة المساء فهمها بأنّ الدين يولّد أعلى معيار أخلاقي في المناصب الحكومية، وقوى حجج العلمانيين. وكان التأثيرُ أشدَّ وقعًا على الأجيال الشابة المتعلّمة، الأُمّية بالدين، التي فسّرت بسذاجة تلك التطوّرات بأنّها من الإسلام.

وامتد الإحباط وخيبة الأمل من الإسلاميين إلى جميع أرجاء المنطقة؛ إذ أبدى الإسلاميون باستمرار تباينًا بين شعاراتهم الدينية وحكمهم، ليكشفوا عن حالة متأصلة من التوتر، ربما متعذرة الحلّ، بين الرؤية الشمولية للإسلام والمصالح الأرضية للسياسة الحديثة. إذ تستوجب المشاركة في الميدان السياسي قدرًا من العلمانية، فالنظام السياسي الحديث بُنيَ على نظريات سياسية عرّفت الدولة بأنّها كيان لا يدين بأيّ ولاء لأية سلطة فوقها^(١)، حيث النظام والسيطرة فكرتان أساسيتان مركزيتان. وليست السياسة سعيًا في تصويب أخلاقي أو روحي فهي تعتبر نفسها «فوق» دعاوي الأخلاق والدين؛ وقد حُدّدت بأنّها فضاء علماني: فلم

(١) بول كيلي، "Introduction to Modern Political Thought" (مدخل إلى الفكر السياسي الحديث)، (لندن: البرامج الدولية لجامعة لندن، 2011).

تُعطِ امتيازًا للجماعة بقناعات معينة على حساب جماعة أخرى، ولكن فسحت المجال للجميع للسعي في سبيل السلطة. وإن المنافسة في هذا المضمار لغرض رفع راية الإسلام والحثّ على الانبعاث الأخلاقي والروحي هي مغامرة تهزم نفسها بنفسها. لقد عزّزت التجربة السياسية للإخوان المسلمين الفكرة التي تدّعي بأنّ الدين عنصر لا حاجة إليه في الحياة العامة. ومع أنّ الدين يملأ ويتخلل جميع جوانب الحياة، إلا أنّ مساعي الإخوان المسلمين وغيرهم من الدينيين السياسيين أثبتت أنّ دينهم لا يقدّم لاهتمامات الإسلام إلا رعاية جزئية.

ومن الأمثلة على إعادة أسلمة الدولة التي وعدوا بها: سياسة خارجية ومحلية تشير إلى الدين، ومنهاج تعليمي مثقل أكثر بالدين، وحضور مرئي متزايد لرموز دينية على الملأ. بيد أنّهم صرفوا النظر تمامًا عن تغييرات محورية ذات سمة مميزة كإعادة العلماء إلى دورهم ومكانتهم بوصفهم حماة للشرع الحنيف، واستقلالية المعاهد العلمية الإسلامية، وسعي حثيث لإحياء «الفضاء الثقافي الكوني» للأمة. بينما كان الإسلاميون قنعين بتكرار التعبير عن الالتزام الإسلامي الظاهري وحجب العالم الحديث بالأشكال الإسلامية. وقد كان عجزهم عن تحقيق الوعد «بالإسلام منهجًا كليًا للحياة» بعيدًا جدًا عما تصوّره الخيال؛ وبالنظر لسوء إدارتهم في الحكم، فقد كانت النتيجة الطبيعية عند كثيرين نبذ الفكرة برمتها: «لم نحصل على الإسلام ولا على خدمة عامّة جيدة».

التطرف

التنظيمات المتطرفة في العالم العربي نتاج جانبي طبيعي للاندماج بين الاعتقاد المتزمت والإيديولوجية الدينية السياسية. ولا اختلاف بين القاعدة وداعش وجبهة النصرة وأنصار الشريعة وأضرابهم في مسائل جوهرية كالعقيدة أو في نظرتهم الإيديولوجية الضمنية، إنّما الاختلاف في أمور بسيطة. وقد هيمن فكر هذه التنظيمات وأفعالها على الحوار الديني في سياق ما بعد أحداث ٩ / ١١، وهياً أرضية خصبة للمشاعر العلمانية والإلحادية في العالم العربي.

كان العلمانيون العرب يواجهون دائماً بأنهم يحشدون لدعم تهميش الدين عن الحياة العامة. غير أنّ الميل السائد في المنطقة متجه لاحتضان الدين، وقبل ظهور نمو التطرف المشحون دينياً لم تشهد المنطقة فظائع أو إخفاقات باسم الإسلام. فقد ظلّ الإسلام، بما يحمل من معاني الحق والعدل والرحمة والحضارة، الأمل المخلص؛ إلا أنّ تنظيم القاعدة وما تفرّع عنه وشاكله غيروا هذا الفهم والإدراك، وفي أحسن أحوالهم أحدثوا ريبة حول جدوى إسلام منظمّ يمكن أن تقوم عليه دولة؛ وأعمّ من ذلك أنّهم ساندوا الخطاب العلمانيّ المناهض لأي دور للدين في الحياة العامة والمتحيز ضده.

وقد خطا الملحدون في المنطقة خطوة إلى الأمام مستغلين صور التفجيرات الانتحارية وقطع الرؤوس والقتل العشوائي غير المميّز والتدمير الهائل لعرض «حقيقة» الدين وإقناع الناس بالإلحاد بوصفه خياراً أفضل؛ وأوجدوا وسوماً

(هاشتاغات) وشعارات وأطرًا استعرافية حول هذه الصور لغرس رسالة تفيد بأنّ الإرهاب الذي تنشره هذه المجموعات هو مجرد إرث التعاليم النبوية. ومن تقليب النظر في مواقع الملحنين الإلكترونيّة وصفحاتهم ومدوناتهم تظهر مكنة التجنيد والاستغلال التي قدّمها الدينيون المتشدّدون للملحنين. فقد كتبت في تغريدة فتاة تزعم أنّها من مكّة وتعلن عن نفسها بأنّها ملحنة: «#داعش عليهم السلام فعلوا خلال سنة ما عجز عن فعله الملاحدة خلال مليون سنة»^(١).

لم يحاول العلمانيون أن يميّزوا الإسلام الصحيح عمّا يلقونه من فهم هامشي سطحي له، إذ جعلوا الدين هو المشكلة كلّها، ولذلك قدّمت تجاوزات المتطرّفين فرصة ذهبية لتمهيد الطريق لتقدّم العلمانية، ومن ثمّ التمدّد إلى الإلحاد. والأهم من ذلك وربما على نحو غير مسبوق أنّ هذه الفرصة شدّ من عضدها مزاج عام آل أمره الآن إلى الارتباب بفاعلية الدين.

وخلاصة الأمر، وبما يتفق مع دليل سردي كوّنته أخبار كثيرة، فإنّ التشويه القبيح الذي تسمّم به الدين قد أدّى دورًا مركزيًا مُمكنًا في صعود مشاعر إلحادية عند الشباب العربي. على أنّ هذا النطاق من البحث يجب دراسته والاستفاضة فيه للخلوّص إلى استنتاجات معتبرة على نحو أدق.

(١) حفصة ملحنة وتمتدّد (25/6/2014)، (Hafsa1990).

ركود الخطاب الإسلامي الأصيل

إنّ حالة الركود التي أصابت الخطاب الإسلامي الموروث ندرجها هنا بوصفها عاملاً مسبباً ثانوياً غير مباشر في انتشار الإلحاد الحديث. إذ دفعت هيمنة التفسيرات الدينية المتزمتة والحركات الإيديولوجية الإسلام الموروث دفعا جزئياً للتراجع الظاهر من ميادين العمل الدعوي الآتية:

التجديد المنهجي: مواضيع ومواد

في غياب القيام بعمل شامل موحد لتجديد مباحث علم الكلام، صارت المنطقة العربية مصابةً بالعجز عن تكوين إدراك إسلامي أصيل لما حققه الغرب من سبق في العلوم الطبيعية والإنسانية والفنون. على أنّ جهوداً تجديدية سليمة في القرن العشرين بذلها علماء من أمثال الشيخ مصطفى صبري والشيخ محمد سعيد رمضان البوطي كانت مهمّةً في مفهومها ورمزيةً من حيث إنّها منبثقة من إطار الموروث الإسلامي الأصيل، ولكنها ظلّت جهوداً معزولة إذ لم تُخدم لا من الناحية الفكرية ولا المؤسسية.

وعلى غرار ذلك، لا تزال أعمال فكرية معتبرة لإدراك الواقع الحديث ومعناه بالنسبة للمجتمع العربي تقوم على أساس فردي؛ فهي لا تتلقى دعماً كافياً لإحداث تحوّل يمكن إدراكه على مستوى النموذج المعرفي في الوسط الإقليمي الثقافي

والفكري. وهذا الشعور كان يردد صداه مالك بن نبي، إذ كانت أعماله حول نقاط التقاطع بين النظرة الإسلامية للعالم والعلوم الإنسانية والفنون مهمةً تمامًا خلال مدة حياته. ففي رؤية مستبصرة لا تزال سارية إلى يومنا هذا ذكر شيئاً يمكن تصوّره وإدراكه وهو أنّ الشبكة الثقافية المطلوبة لتحقيق نتاج فكري نوعي غير موجودة في العالم العربي كما كانت في أوروبا، حيث تجلّى هذا النتاج في الجهد الفكري في أنحاء أوروبا لطباعة العهد القديم باللغة السريانية والآرامية اليونانية واللغات اللاتينية. وإنّ جهده الشخصي من أجل طباعة كتابه «مشكلة الثقافة» بإرساله إلى عدد من السفراء والمسؤولين العرب قوبل بالصمت⁽¹⁾.

وتتجه العديد من الاستجابات الفكرية للحدّثة وما يتبعها من مواضيع ومظاهر إلى الوقوع بين قطبين: فئة غربية الهوى من مفكرين عرب تستورد النظم الفكرية الغربية وتطبقها دون تصفية أو استنساب أو تكييف، وفئة دينية ذات تحفّظ فكري تُنسب إلى تفسير غير أصيل للإسلام ولديها فهم أقرب إلى أميّة بائسة بالفكر الغربي والتاريخ الفكري. وكلا القطبين ساهم في تهيئة بقعة فكرية قاحلة ينتشر بين جنباتها الإلحاد الحديث.

وتعاني عقلية الأجيال الجديدة من انقطاعها عن أهم المؤلفات المعتمدة الموثوقة التي أُلّفَت عن الإسلام، وقد كانت هناك محاولات قليلة لإعادة صياغة أعمال رصينة من التراث للأجيال الشابة بلغة يفهمونها. وغالبًا ما تحظى هذه الجهود

(1) مالك بن نبي، تأملات، (دمشق: دار الفكر، 2013).

المبدولة بانتشار محدود، بينما جهود الجماعات الإيديولوجية وتحديدًا مؤسسات الدعوة السلفية لها تأثير على السواد الأعظم من الناس، إذ إنّ المواد المنشورة الأسهل وصولاً إلى الأجيال الشابة هي تلك التي تصدر من تلك الجماعات.

ثمّ إنّ المناهج المدرسية قد كانت لها مساهمات في تكوين الأُمّة الدينية التي غمرت أجيال الشباب. فلقد وقعت أغلب مناهج تدريس الدين في المنطقة بين كونها سطحية جدًّا إلى حدّ جعل الدين يبدو وكأنّه قواعد ومعلومات أو كونها جامدة جدًّا بحيث تزرع بذور الكراهية والتدين المتشدّد.

وعلى الرغم من الحاجة إلى القيام بمراجعة شاملة لمناهج التدريس الإسلامية في العالم العربي فإنّ ثمة دليلاً كافياً يشير إلى أنّه لا وجود لعلاقة عمل ملائمة بقدر وافٍ بين علماء، لديهم مكنة في النص والسياق، ومتخصصين في تطوير المناهج. وما برحت هذه التطوّرات تؤثر تأثيراً تراكمياً في البيئة الألفية. ويواصل الغرب تقدّمه الفكري بينما لا يزال العالم العربي يكافح من أجل تعامل مقنع مع العالم الحديث كما كان تصوّره في أول الأمر. ويلقى خطاب الإلحاد الجديد قوة جاذبية لأنّه «قادم جديد» لم يقف أمامه تحدّد ولديه متسع من الوقت ليتولّى انتشاره؛ لكن المتصدّين للرد على مزاعم هذا الخطاب يسعون بالضرورة إلى «اللاحق بالركب» إذ عليهم أن يتعلّموا محتوياته ثم ينطلقون للنقد.

وما فتئت المساعي لصدّ مزاعم الإلحاد والفكر العلماني الليبرالي الغربي تتزايد في العالم العربي ولكن تتفاوت من حيث السلامة الفكرية، والأهم من ذلك، أنّها لا

تزال موجودة بصورة مشاريع منعزلة. ويمكننا قياس مدى ما أضر ذلك بقدرتها على إحداث تحوّل فكري حقيقي عن طريق التعلّم من نتائج الجهود الفكرية في القرن العشرين لمفكرين من أمثال الشيخ البوطي ومالك بن نبي.

معرفة الوضع الراهن

اتّسم الضمير الديني العام المعاصر في الشارع العربي بأحد اتجاهين ظهرا في القرن العشرين: الحركات الدينية الإيديولوجية والدعوة الوهابية. وقد حدث من السبعينيات والثمانينيات فصاعداً أن شهد هذان الاتجاهان صعوداً في غمرة ركود الخطاب الإسلامي الموروث الذي أصابه فتور أكثر من اللازم إزاء وضع قائم متعثر عمره قرون.

وقد كانت الهيمنة دائماً للمنهج القويم المعترف عند أهل السنة والجماعة في الحياة الدينية العامة بأشكالها المختلفة من خطب وفتاوى ومعاهد شرعية وفهم الدين العام. وكان المنهج على العموم متمسكاً بنموذج السند المتصل المتوارث كابراً عن كابر، ولم يكد يهدد استقراره شيء. وظلّ الأمر على هذه الحال إلى عهد قريب في القرن الميلادي الأخير. وفي الجزء الأخير من هذه المرحلة، أصبح العلماء مدرّكين تماماً لهذا الواقع التاريخي ولكن مع إدراك أقل لانتشار الخطابات الهامشية والإيديولوجية في أوساطهم. وقد واصلوا التزامهم بدورهم الموروث في الدعوة ونشر العلم دراسةً وتدرّساً وفي الإدارة (إدارة المؤسسات الدينية في الدولة)، إلا أن

هذه الخطابات الجديدة تنامت لاحتلال الفضاء العام على نحو خطير. وقد تكشف أثر هذه التطورات من التسعينيات فصاعدًا.

وقد أفضى فتور أهل السنّة والجماعة إزاء الوضع القائم إلى تطوّرين آخرين اثنين كان لهما تأثيرٌ سلبي على قدرتهم على التأثير العام ودورٌ داعم في نشأة ظروف وأوضاع مؤاتية لانتشار الإلحاد: انحسار الدعوة إلى الله عن المجال العام والغياب المؤثّر للدعاة.

انحسار دعوة الناس إلى الله تعالى

تراجعت جهود أهل السنّة والجماعة في الدعوة، مع وجود استثناءات، عن المساجد والفضاء العام في العقود الثلاثة الأخيرة، مما أدّى إلى فراغ غاب فيه الخطاب الإسلامي المعتبر الموروث عن تشكيل النظرة «الإسلامية» العامة حول شؤون الساعة والأحداث الجارية فملأته حركات وتفسيرات دينية لا تمثل دين الإسلام الأصيل المعتبر عند أهل السنة والجماعة. فكان تأطيرها للأحداث إما لمصلحة غايتها القصوى أو محدّدًا على نحو ضيق بحيث لا يستوعب الجماعة الأوسع للمسلمين. وفي الغالب كانت التيارات المناهضة للدين والاتجاهات غير الدينية في العالم الإسلامي تتفاعل برّدّة فعل مع هذه الأطر والإسلام الذي تتبنّاه.

وهذا الانحسار له أسباب وجيهة ليس أقلّها شأنًا مسألة الدعم المادّي الحاسم. فقد أدّى عدم الاستقلالية المالية لعلماء الدين وفقدانهم لمسارات وظيفية

تمنحهم أدوارًا ملائمة في المجتمع إلى أن يقبع جيل من المواهب منهم في وظائف غير منطقية وغير ملائمة مما جعل تأثيرهم على الضمير العام يستمر في وهنه وضعفه.

غياب الدعاة والعلماء

ثمة ثلاثة عوامل جعلت لهذا الغياب اعتبارًا مهمًا في انتشار الإلحاد. الأول، انحسار الدعوة العامة كما أسلفنا أدى إلى إحداث فراغ في الفضاء العام لم يملأه كما ينبغي الخطاب الإسلامي المعبر. الثاني، ظهور الإنترنت بوصفه نموذجًا مقبولا في المجتمع والمداهائل لوسائل التواصل الاجتماعي كان يعني وجود تركيز أكبر على المظهر العام للدين، أي أنّ الذي يمكنه بسط حضوره العام لديه تأثير على الوازع الديني. وقد كان واضحًا ومعبرًا عن ذلك بزوغ دعاة الفضائيات في السنوات التي سبقت ظهور وسائل التواصل الاجتماعي. وحقق كثير من أولئك الدعاة انتقالًا ناجحًا إلى وسائل التواصل الاجتماعي وجذبوا إليهم ملايين المتابعين. وكان المظهر الإشكالي لهذه التطورات عند علماء الإسلام المعبرين هو انتفاءها لدعاة العصر الجديد، إذ إنّ كثيرًا منهم قد غُذي بنزعات التنظيمات الإسلامية، وقليل منهم، إن وُجد، من نتاج الإسلام المعبر الموروث. أفكار أولئك وآراؤهم عن الإسلام والدعوة والسياق المعاصر متناغمة مع نمط الحركات الإسلامية الإيديولوجية، سواء كانت فتاوى «ديمقراطية» أم مفاهيم عن الهوية فهي مجرد أسلمة الأشكال والمظاهر الحديثة. أمّا العامل الثالث فيتصل بالعدد الضئيل جدًا للدعايات والمدرسات المؤهلات، إذ

كان يعني غيابهم عن حقل الدعوة تعاقب أجيال من المسلمات الشابات قد حُرِمْنَ
الأسوة النسائية الصالحة في الدين التي تمثل الإسلام المعبر.

ولم تشهد العقود الثلاثة الأخيرة حضوراً لدعاة معتبرين يفوق تأثيرهم على
الوازع الديني العام تأثير الدعاة المنحازين لنزعة الحركات الإيديولوجية. وما فتئ
بيت الخطاب الإسلامي المعبر يتلکأ في هذا الشأن ولا يقتحم، كما ينبغي، ميدان
تربية أجيال من الدعاة الموثوقين يمكنهم أداء دورٍ يمثل صلة وصل بين عموم
الناس وكبار العلماء. وإنه قد جعل هذا العصر الشبكي الحاجة إلى ممثلين للدين
«فاعلين» مطلباً ضرورياً لا غنى عنه من أجل نجاح الدعوة في مجتمع الناس.

الإلحاد الجديد

لقد امتدّ التأثير الاجتماعي والثقافي للإلحاد الجديد في الغرب الناطق باللغة
الإنكليزية امتداداً رمزياً إلى العالم العربي بعد ترجمة كتاب «وهم الإله» ذي الرواج
الواسع، عام ٢٠٠٩، إلى اللغة العربية ووزّع مجاًناً على الإنترنت. والبيئة السردية التي
تبديها أخبار كثيرة هي أنّ النموذج المهيمن للإلحاد المنتشر بين الشباب العربي هو
نمط الإلحاد الجديد. ونظراً لما تشهده المنطقة من مشكلات وأزمات تتعلق بالتطرف
والركود الديني والانحسار الفكري فإنّ النتائج غير مفاجئة، إذ أقبل الإلحاد الجديد
يخطط خطابه ليناسب اضطراب المزاج العام. فهو يفتقر إلى الدقة والعقلانية العلمية
التي يدّعيها الإلحاد الفلسفي، وهو ردة فعل عنيفة ضد تمثيل «سيء» للدين أكثر من
كونه سعيّاً حثيثاً ومطلّعاً ومدروساً نحو الحقيقة.

يقوم نشطاء الإلحاد في المنطقة بإحداث أطر استعرافية ثقافية وذهنية في سعيهم إلى تصوير الدين على أنه مصدر المشكلات في العالم العربي. وهذه الأساليب والأطر مستعارة من مكائد مشابهة استخدمت في الغرب ونُفِذَت في الأساس عبر شبكات اجتماعية (حيث الملحدون العرب أكثر نشاطاً فيها). ويتكئ نشطاء الإلحاد بقوة على مظاهر الإفراط وتجاوز الحد ذاتها المرتكبة باسم الدين لإشاعة أطهرهم واستغلالها لتستخدم أساساً يهاجمون منه الدين.

وبالطريقة ذاتها التي جرى بها تبسيط شديد لفهم العقيدة والشرعة وأسْرُ الضمير الديني العام في العالم العربي عبر الحركة الوهابية، يقوم الإلحاد الجديد باختزال الدين في جملة من أسوأ ما يمثلُه ثم يقدمها على أنها «حقيقة» الدين. وهذا الأسلوب ونزاهته الفكرية مشين ومعيب، ومع ذلك فهو فعال في جيل تؤثر فيه صور الأحداث وممارساتها الاجتماعية وقصصها المتداولة.

الثورات العربية ٢٠١٠-٢٠١١

لم تكن الثورات العربية السبب المباشر في ظهور الإلحاد في المنطقة، بيد أنها كشفت هذا التيار. فحماسة الثورات أوجدت إحساساً بالتمكين بين الناس إذ شعروا أن بإمكانهم كسر الأصفاد المضرّوبة على التعبير العام. وقد استغلّت جماعات هامشية تشكل أقلية، وهي موجودة في كلّ بلدٍ عربي قبل حدوث الثورات، الوضع فتحرّكت بواعثها للتعبير عن قضاياها بطرق لم تكن معروفة قبل عام ٢٠١١. ولولا

الثورات لربما مقدار امتداد الإلحاد بين الشباب العربي ما كان ليعرّف.

على أنّ تيارات هامشية أخرى قبل ذلك، تُبدي صلة ما بالإلحاد أو الميول الإلحادية سواء بصورة مباشرة أو مُمهّدة له، أتت إلى المقدّمة لتواصل السعي رويدًا رويدًا نحو المجال العام بطرق مسيّسة وغير مسبوقة. من ذلك النسوية المتشدّدة (كحركة «فيمن» في تونس) والشذوذ الجنسي (لبنان موطن جماعتين لحقوق الشواذ، حلم وميم) وتصريحات التجديف والكفر العلنية. وفي أعقاب الثورات قوي حُكمًا تصميمٌ هذه التيارات والاتجاهات التي أمدّت الثورات بالعون على رفع العراقيل التي تعترض طريقها نحو نشاط علني صريح في الفضاء العربي العامّ.

فلم تكن الثورات العربية أحداثًا منعزلة، إذ أعطت مؤشّرًا لتحوّل ثقافي واجتماعي مهمّ سيبقى بين الأجيال الجديدة وربما يطفو مرةً أخرى على السطح في القريب العاجل.

خاتمة

الإلحاد في العالم العربي موضوع بحث محيّر، إذ لا توجد بيانات حقيقية حول عدد الملحدين في المنطقة، ولا وجود لدراسات شاملة حول بواعثهم ومواقفهم وآرائهم. ولم تعتمد الأخبار والتقارير والتقديرات المستخدمة لأغراض هذه الورقة تقريباً إلا على دلائل سرديّة وتفاعلات ومقابلات واسعة لدعاة يمثلون الدين كانت لهم مع ملحدين عرب. ولئن فسح هذا المجال للقيام بعمل تشخيصي، فهو لا يقدم أساساً كافياً للقيام بجهد مستقبلي جوهري مهمّ.

وتيار الإلحاد يزداد ويتسع في المنطقة ومن المتوقع أن يستمر بلا انقطاع في المستقبل القريب. وما لم يقيم أكاديميون وباحثون ومؤسسات في المنطقة بتخصيص موارد لإنشاء مبادرات بحثية تعين على تعزيز فهم واعٍ ومطلّع للقضية فلسوف تسود ردود ارتجالية بلا تفكّر ولا تروٍّ، لا تؤدّي إلا إلى اشتداد التوتر بين الملحدين والمؤمنين. وستتعرّض فرصة الوصول إلى حلول واقعية إلى ضرر كبير. والأهم من ذلك أنّ القادة الدينيين لن يكونوا قادرين على التعامل مع المشكلة تعاملًا صحيحًا ما لم يكن لديهم تصوّر وافٍ عن أبعادها الكثيرة، والذي يمكن أن تمنحه مبادرة بحثية.

وأحد المجالات المهمّة التي يمكن أخذها في الاعتبار من أجل مزيد من الأبحاث إجراء دراسة مفصّلة لاتجاهات الجيل الألفي العربي. وقد أنجز بعض العمل في هذا الشأن لكنّه غالباً ما يُغفل العنصر الأهم الخاص بموقف الدين وحكمه. ولفهم

السبب الذي يقف وراء تقبّل الإلحاد بين أعداد متزايدة من الجيل الألفي من الشباب العربي، من الضروري فهم وجهات نظرهم عن الدين والخطاب الديني.

لم يكن الغرض من هذه الورقة إجراء نقض فكري للإلحاد الحديث أو تحليل التأثيرات الفكرية على خلق الأوضاع والظروف للإلحاد في المنطقة. فكلٌّ من هذين الخطّين من البحث مهمّ وبوسعه إثراء فهمنا لسبب تنامي الإلحاد بين الأجيال العربية الجديدة، ولكن المذهب الفكري والعقلي في سياق العالم العربي الحديث لا يعدّ سمة قوية للوسط الأكاديمي والثقافي الإقليمي، وموجة الإلحاد الراهنة لم تنشأ من جهود وأنشطة فكرية متقدّمة في المنطقة. وإنّ إجراء دراسة مستقبلية حول دور الخطاب الفكري وانتشار الإلحاد قد يقدّم بصائر مهمّة ونظرًا عميقًا حول دور النشاط الفكري في المنطقة وكيف يمكن أن تؤثر العوامل المتغيّرة، كعملية تحسين مستوى أنظمة التعليم، في «الفضاء الكوني الثقافي» الحالي في المنطقة.

ولم يكن الهدف من هذه الورقة اقتراح حلول لمشكلات، إذ انصبّ تركيزها على تعميق فهمنا للعوامل المعاصرة على وجه التحديد التي أدّت إلى الإلحاد والسبب الكامن وراءها. فهذه العوامل لها صلة سابقة بالتغيرات التاريخية في العالم العربي إذ يمكن تحديد سلسلة متصلة منها على أمل أن تكون عملية وضع استراتيجيات للتعامل مع أزمة الإلحاد حصيفةً حكيمة متبصرة وواقعية. ومن المقترح مقارنة تشاركية من حيث إنها أفضل نهج لبدأ به حوار بناء حول الخطوات القادمة لمعالجة انتشار الإلحاد في العالم العربي.

إصدارات أخرى من مبادرة سؤال (أبحاث) .

- ١ . قيمة السؤال .
- ٢ . استدلال الشيخ مصطفى صبري على وجود الله في السياق الحداثي .
- ٣ . مقتطفات من تاريخ الفلسفة في العالم الإسلامي .
- ٤ . الأخلاق والتجريبية ، نظرات نقدية في كتاب «المشهد الأخلاقي»
لسام هارس .
- ٥ . هل السؤال ممنوع ؟
- ٦ . مدخل إلى دراسة الأزمة الروحية الغربية .
- ٧ . حول زعم ستيفن هوكينغ أن الفلسفة ماتت .
- ٨ . القدرة الألهمية وعالم الأسباب .
- ٩ . التعددية الدينية .
- ١٠ . تاريخ موجز للإلحاد .

إصدارات أخرى من مبادرة سؤال (مطويات) .

- ١ . من حقي أن أسأل .
- ٢ . العقلية الخرافية .
- ٣ . الإيمان الأعمى .